ث. حلف الفضول:

حلف الفضول هو أحد أبرز الأحلاف الأخلاقية التي شهدتها مكة في الجاهلية، وقد عُقد بعد حرب الفِجَار، في دار عبد الله بن جدعان التيمي، بحضور عدد من سادات قريش من بطون مختلفة، مثل بني هاشم، وبني زهرة، وبني تيم، جاء هذا الحلف استجابةً لحادثة ظلمٍ تعرّض لها رجل يمني دخل مكة ببضاعة فاستُلبت منه، ولم يجد من ينصره، فقام الزبير بن عبد المطلب عمّ النبي (ﷺ) بالدعوة إلى اجتماع طارئ لنصرة المظلوم، فاجتمع الحاضرون وتعاهدوا على أن لا يُترك في مكة مظلوم إلا نُصِر، سواء كان من أهلها أو من خارجها، وأن يُؤخذ الحق لصاحبه من الظالم[1].

وقد شهد النبي محمد ﷺ هذا الحلف وهو شاب، وقال عنه لاحقًا: "لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت"، وذكر ابن إسحاق أن النبي (ﷺ) كان يومذاك في العشرين من عمره، وهذا يدل على تقديره العميق لقيم العدالة ونصرة المظلوم، حتى قبل البعثة[2].

يمثل حلف الفضول لحظة نادرة في الجاهلية اجتمع فيها العرب على مبدأ أخلاقي يتجاوز العصبيات القبلية، ويُعد من الإرهاصات التي مهدت لرسالة الإسلام في الدعوة إلى العدل ورفع الظلم[3].

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج١ ، ص ١٢٨ ؛ أبو شهبة، السيرة النبوية، ج١، ص٢١٣.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج١ ، ص١٨٣ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج١ ، ص ٥٧٠ .

(٣) ابن هشام، السيرة، ص ١١٢ .

ج. زواج الرسول (ﷺ) من السيدة خديجة:

بعد أن بلغ النبي (ﷺ) من العمر خمسة وعشرون سنة عمل بالتجارة ثم عمل مع السيدة خديجة في أموالها وأعجبت به وبأمانته فذُكر: "أن النبي (ﷺ) تزوج من السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وكان عمره خمساً وعشرين سنة"، وكان عمر السيدة خديجة حين تزوجها النبي (ﷺ) أربعون سنة وقيل ثمان وعشرون سنة وقيل غير ذلك[1].

روى ابن هشام أن السيدة خديجة عرضت نفسها على النبي (ﷺ) لزواجها لما رأت فيه من أمانة وإخلاص فلما قالت ذلك للرسول ذكر ذلك لأعمامه فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها، وأصدقها رسول الله (ﷺ) عشرين بكرة (ناقة) وكانت أول امرأة تزوجها الرسول (ﷺ) ولم يتزوج غيرها حتى ماتت (رضي الله عنها) فولدت له (ﷺ) جميع أولاده إلا إبراهيم، وهم القاسم وبه يكنى (ﷺ)، وعبد الله ويلقب بالطاهر والطيب، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة (ﷺ)، أما القاسم



Scanned with CamScanner

٨. أعمال النبي (ﷺ) قبل البعثة:

بعد أن اصبح النبي شاباً ثم رجلاً في مكة قام بالعديد من الأعمال وهي كالآتي:

أ. رعي الغنم: إذ روى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ) **"ما من نبي إلا وقد رعى الغنم" قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: "نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة"**[١].

ب. عمله بالتجارة: ذكر ابن هشام: "وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم وكانت قريش قوماً تجاراً فلما بلغها عن رسول الله (ﷺ) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً وتعطي أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة فقبله رسول الله (ﷺ) منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام[٢]، علما انه خرج مع عمه أبا طالب في تجارته إلى الشام وكان عمره في التاسعة أو العاشرة أو الثانية عشرة، على اختلاف المؤرخين[٣].

---

(١) البخاري، صحيح بخاري، ج٢ ، ص٢٧٧، رقم ٢٢٦٢.

(٢) ابن هشام، السيرة، ص٩٦ ؛ ابن حبيب، المحبر، ج١ ، ٢٣ .

(٣) ابن سعد، الطبقات، ج١ ص١٢١ ؛ الطبري، تاريخ، ج١ ، ص٥١٩ ؛ ابن حزم، جوامع السيرة، ج١ ، ص٣٤ .

ت. حرب الفجار:

ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق: "لما بلغ الرسول (ﷺ) أربع عشرة سنة أو خمس عشرة هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان، وشهد الرسول بعض أيامهم إذ أخرجه أعمامه معهم، وقال الرسول (ﷺ): (كنت أنبل على أعمامي أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها)[١].

سُمِّي يوم الفِجَار بهذا الاسم لأنه شهد انتهاكاً صريحاً لحرمة الأشهر الحُرُم، وهي الأشهر التي كان العرب في الجاهلية يُحرّمون فيها القتال، وهي: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم، ورجب، وقد وقعت هذه الحرب في شهرٍ من هذه الأشهر، فكان ذلك خرقاً للأعراف القبلية والدينية السائدة آنذاك عند العرب، فوصفت هذه الحرب بـ"الفِجَار"، أي الفجور في الحُرمة[٢].

Scanned with CamScanner

١٠. إرهاصات البنوة:

لما قارب عمر النبي (ﷺ) من الأربعين بدأت تظهر عليه إرهاصات وعلامات النبوة فأول ما بُدئ به رسول الله (ﷺ) الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه- وهو التعبد- الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك... [١] .

أن رسول الله (ﷺ) حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة، وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله بحجر، ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله فيلتفت الرسول حوله، وعن يمينه، وعن شماله، فلا يرى إلا الشجر والحجارة، فمكث رسول الله (ﷺ) كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث[٢].

وروى مسلم أن النبي (ﷺ) قال: "إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن" [٣].

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، رقم ٤٩٥٣ ؛ ابن هشام، السيرة، ص ١٢٠ ؛ مسلم، الصحيح، رقم ١٦٠ .

(٢) ابن هشام، السيرة، ص١٢٠ ؛ الطبري، تاريخ، ج١ ، ص٥٢٢ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج١ ، ص٨٢ .

(٣) مسلم، الصحيح، رقم ٢٢٧٧ .

١١. مبعث النبي (ﷺ) ونزول الوحي:

ولما بلغ عمر النبي (ﷺ) أربعين سنة وكان كعادته يتعبد في غار حراء، حتى إذا كان شهر رمضان الشهر الذي بعثه الله تعالى فيها ليكون نبياً للعالمين، خرج رسول الله (ﷺ) إلى حراء، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل (عليه السلام) بأمر الله: قال الرسول (ﷺ)[١]: فجائني الملك جبريل (عليه السلام)، فقال: اقرأ، قال: قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت: أما أنا بقارئ فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [٢]، فرجع بها ترجف بوادره فقال: زملوني، زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: وأخبرها الخبر لقد خشيت علي نفسي،

ح. تحكيم النبي (ﷺ) في بناء الكعبة:

لما بلغ النبي (ﷺ) ٣٥ سنة وأرادت قريش هدم الكعبة ثم بنائها فاختلفوا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، فاتفقوا على أن يحكم بينهم أول من يدخل المسجد الحرام فكان النبي (ﷺ) أول من دخل المسجد الحرام روي أن قبائل قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة، لتهدم جزء كبير منها وتضررها من السيول، حتى بلغ البنيان موضع الركن فاختصموا فيه، فكل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، فقرر أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وكان يومئذ أسن قريش كلها، قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم -فيما تختلفون فيه- أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا فكان أول من دخل رسول الله (ﷺ)، فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا هذا محمد فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال (ﷺ): "هَلُم إليَّ ثوباً" فأتي به فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال "لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا" ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده ثم بنى عليه، وكانت قريش تُسمي رسول الله (ﷺ) قبل أن ينزل الوحي عليه بالأمين[1].

ويبدو من هذا الفعل أن قريش كانت تنظر إلى النبي (ﷺ) نظرة احترام وتقدير عاليين حتى أنها على المباشر وافقت على أنه يكون هو الحكم في من يضع الحجر في مكانه، وهو بذلك انهى حالة النزاع والخصومة فيما بينها، وأوقف أمراً ربما يتطور إلى حالة القتال المتوقع بين قبائل قريش.

---

(١) ابن هشام، السيرة، ص١٠١ ؛ الطبري، تاريخ، ص ٥٢٦ ؛ ابن الأثير، الكامل، ج١ ، ص٦٧.

٩. حياة النبي (ﷺ) الروحية:

إن النبي (ﷺ) كان قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات، وكان طرازاً رفيعاً من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظاً وافراً من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة وقول الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة، ونأى عنها، ثم عايش الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسناً شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته العتيدة فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب، ولا يحضر للأوثان عيداً، ولا احتفالاً، بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى[1].

Scanned with CamScanner

فقالت: له كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرئ الضيف وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به حتى أتت به ورقة بن نوفل وهو ابن عمها وكان رجل تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب بالعبراني من الإنجيل ما شاء الله، فقالت له: اسمع من ابن أخيك فروى له النبي ما رأى فقال له هذا الناموس الذي انزل على موسى."[٣].

---

(١) ذكر ابن هشام أن جبريل جاء إلى النبي وهو نائم، ولكن هذه الرواية ضعيفة لما يعارضها في صحيحي مسلم وبخاري.

(٢) سورة العلق، الآية: ١_ ٥ .

(٣) البخاري، الصحيح، رقم ٦٩٨٢ ؛ مسلم، الصحيح، رقم ١٦٠.

١٢. سرية الدعوة في مكة والمسلمون الأوائل:

بدء رسول الله (ﷺ) يذكر ما أنعم الله عليه وعلى العباد به من النبوة سراً إلى من يطمئن إليه من أهله، وكان من الطبيعي أن يعرض الرسول (ﷺ) الإسلام أولاً على ألصق الناس به من أهل بيته وأصدقائه ممن يعرفهم ويعرفونه فأجابه هؤلاء الذين لم تخالجهم ريبة قط في عظمة الرسول (ﷺ) وجلالة نفسه وصدق خبره جَمعٌ عُرفوا (بالسابقين الأولين)، وفي مقدمتهم زوجة النبي (ﷺ) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ومولاه زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، وأبن عمه علي بن أبي طالب وكان صبياً يعيش في كفالة الرسول (ﷺ)، وصديقه الحميم أبو بكر الصديق أسلم هؤلاء يوم الدعوة، ثم نشط أبو بكر في الدعوة إلى الإسلام فجعل يدعوا من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه فأسلم بدعوته عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام الأسدي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص الزهريان، وطلحة بن عبيد الله التيمي، فكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام[١].

ثم كان أول من آمن برسول الله (ﷺ) بعد السيدة خديجة وصلى معه وصدق بما جاءه عن الله تعالى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ابن عبد المطلب بن هاشم وهو ابن عشر سنين يومئذ، وكان ممن انعم الله على الأمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) انه كان في حجر رسول الله (ﷺ) قبل

---

(١) ابن هشام، السيرة، ص١١٩ ؛ ابن سعد، الطبقات، ج١ ، ص١٣٠ ؛ الطبري، تاريخ، ج١ ، ص ٥٢٢ ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١ ، ص٤٩ ؛ المباركفوري، الرحيق المختوم، ص٨٠ .

Scanned with CamScanner